علاقة بني عبد الواد (بنو زيان، تلمسان) ببني مرين (المغرب) بين القرن 7 – 10هـ/13 – 16م

د. لطيفة بشاري بن عميرة
جامعة الجزائر2

ملخص

بعد سقوط الدّولة الموحدية، استقرّ بنو عبد الواد (الزيانيون) في تلمسان والمناطق المحيطة بها، وأسسوا إمارة حكمت المغرب الأوسط حوالي ثلاثة قرون. وكان الأمير يغمراسن، مؤسس الدّولة، بعد فشله في حرب المرينيين، قد أوصى ابنه أبا سعيد عثمان بمسالمتهم. لكن هؤلاء، شنّوا هجمات متكرّرة على المغرب الأوسط، وحاصروا العاصمة تلمسان، واحتلوها أكثر من مرّة.

وأمام إصرار الزّيانيين على صدّهم، وبداية ضعف دولتهم غيّر المرنيون سياستهم، واختاروا تلك التي تجنبهم كثرة التكاليف، وتمكنهم من التحكم في مصير الإمارة، فأجّجوا الفتن بين أفراد الأسرة الحاكمة. وأصبح المرينيون يولون من شاؤوا ويعزلون من شاؤوا، فدبّ الضعف في جميع دواليب الدّولة الزيانية ولم يستطع رجالها ردّ هجمات الإسبان ثمّ الأتراك، وانهارت الإمارة.

الكلمات الدالة: بنو عبد الواد، بنو مرين، الفتن، الإسبان، الأتراك.

مقدمة

إثر سقوط دولة الموحّدين، تقاسمت بلاد المغرب ثلاث إمارات، الإمارة الحفصية في إفريقية، والمرينية في المغرب الأقصى، والعبد الوادية في المغرب الأوسط. ولمّا تولّى الأمير يغمراسن بن زيان السلطة في تلمسان سنة 633هـ[1] (1236-1235م). أعلن في البداية ولاءه الرمزي للموحدين[2]، حتى يزكوا توليته، ولا يلفت نظر بني مرين والحفصيين.

---

1 - هو أبو يحي يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، ولد سنة 603هـ أو 605هـ/ 1206 أو 1208م) تولى إمارة تلمسان يوم الأحد 24 ذي القعدة 633هـ/ 31 جويلية 1236م (ابن خلدون عبد الرّحمن، العبر، 7، ص 162، ط. بيروت؛ ابن خلدون يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء 1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1400هـ/ 1980م، ص 204) غير أن التنسي يقول أن أبا يحي بويع في 17 جمادى الأخيرة سنة 637 هـ (1241-1240م)،(نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان، الباب السابع، تحقيق محمود بوعياد، طبعة الجزائر، 1405هـ1985-م، ص 154).

2أنظر: حاجيات، أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره)، الجزائر 1394هـ/1974 والطبعة الثانية، 1982م، ص. 13-12؛ ((لم يترك يغمراسن من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش))، (العبر، 7، ص 163، ط. بيروت).

جهود الأمير يغمراسن في بناء الإمارة

ولما شرع الأمير الزياني في توسيع إمارته من ناحية شلف، اصطدم بمغراوة التي استنجدت بالأمير أبي زكرياء يحي الحفصي[3]. وكان يترقّب الفرصة المناسبة لتوسيع نفوذه، هو الآخر، غربا. فاحتل تلمسان في 29 محرم سنة 640هـ[4] / 29 جوان 1242م. وعقد صلحا مع يغمراسن، ينصّ على إقامة الخطبة له، دون الرشيد الموحدي[5]، الذي سبق ليغمراسن أن مكنه من استعادة مدينة مكناس التي اتخذها المرينيون عاصمة لهم[6]، فرد الرشيد بالزحف على المغرب الأوسط، لكن يغمراسن هزمه جنوب وجدة في 10 صفر سنة 646[7]هـ/ 1248م.

وكان لهذا الانتصار نتائج عديدة منها : أن بني عبد الواد أصبحوا يشكلون قوة في المنطقة[8]، كما أن القبائل المنتشرة حول تلمسان انقسمت إلى مؤيدة، ومعارضة ليغمراسن، الذي تفطن للدور الذي يمكن أن تلعبه تلك القبائل لصالحه. فاستغل أوضاعها، وضرب بعضها بالبعض الآخر[9]. كما قام، من جهة أخرى، بعدة محاولات للتوسع شرقا، ضد مغراوة وبني توجين، وغربا، ضد بني مرين وأحلافهم، وخاض في سبيل ذلك حروبا عديدة[10]. وقد استطاع بصموده، وحنكته السياسية،

3عنه أنظر: Idris (H.R): E.I.,article Abou- Zakariya, T.3, Nelle éd. P.71.)

4 - بغية الرواد، 1، ص 205؛ العبر، 7، ص 185 فما بعدها، Fey (Henri Léon), Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination espagnole,Oran, 1958, P. 47. ويجعلها التنسي سنة 645هـ/ 1247-1248م (المصدر السابق، ص 160).

5 - هو أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف العسكري بن عبد المؤمن بن علي، (بغية الرواد، 1، 205) بويع في مستهل شهر محرم سنة 630هـ/ 18 أكتوبر 1232م وقتل يوم الثلاثاء آخر صفر سنة 646هـ/ 23 يونيو 1248م، (عنه أنظر: عنان (محمد عبد الله)، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة 1964م، جـ. 2، ص. 427 فما بعدها من عدة صفحات).

6 - أنظر:
Laraoui Abdallah, Histoire du Maghreb, Paris, 1970, PP. 188-189. ومكناس أو مكناسة الزيتون تقع على بعد 130كلم شرق مدينة الرباط وعلى بعد 60 كلم غرب مدينة فاس،(Funch Brentans (C); E.I. article Meknès, T.III., PP. 18 sqq.)

7 - بغية الرواد، 1، ص206؛ العبر، 7، ص 170، (ط.بيروت)، نظم الدر، ص 163؛ وتقع وجدة شرق المغرب الأقصى على بعد 14 كلم من الحدود الجزائرية المغربية، في الجهة الجنوبية، من سهل أنجاد الواسع، أسسها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ/ 994م Marçais (G.), E.I., Article Oujda, T.III, PP. 1085-1086.).

8 - حاجيات (عبد الحميد)، أبو حمو موسى الزياني، ص 13.

9 - ذلك بأن استقدم قبيلة بني عامر من صحراء بني يزيد (العبر، 7، ص 40و 46، ط. بيروت)؛ وبنو عامر عرب كانوا يضعنون في مجالات بني يزيد، وكان هؤلاء يدفعون لهم ضريبة قدرها ألف غرارة من الزرع تسمى القرارة، لأن بني عامر يظاهرونهم في حروبهم (مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر، 1982، ص. 156)؛ وأقطع يغمراسن بني عامر أراضي خصبة، بين وهران وتلمسان ليضرب بهم عرب المعقل (العبر، 6، ص 59-58) الذين أحدثوا اضطرابات في سهل متيجة أزعجت الدولة (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص 151 فما بعدها)، كما استقدم قبيلة حميان الهلالية. فاستقرت جنوب تلمسان (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص. 151).

10 - قام يغمراسن بحوالي ((اثنتي وسبعين غزوة ضد العرب في الصحراء (بغية الرواد،1، ص 207؛ العبر، 7، ص. 162؛ نظم الدر، ص. 157؛ Marçais (G.), Tlemcen (Les villes d'art célèbres), Paris, 1950, P.35، حاجيات، المرجع السابق، ص 13).

أن يضع أسس إمارة، حكمت المغرب الأوسط حوالي ثلاثة قرون. ووضع قواعد سياسة الدولة الخارجية التي تتمثل في توسيع منطقة حكمه، لتشمل أكبر مساحة في المغرب الأوسط. ولهذا فهو يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة بني عبد الواد، التي اختلفت حدودها، حسب قوة وضعف سلاطينها. إذ وصلت شرقا إلى جبل الزان (جبل أكفادو)[11]، واستقرت عند الوادي الكبير (وادي الصومام)[12]. ووصلت جنوبا إلى الصحراء (صحراء نوميديا)[13]، التي تفصل بين بلاد المغرب وبين بلاد السودان[14]. أما غربا فقد استقرت بوادي ملوية[15]. وكانت هذه الحدود تصل في عهد ابن خلدون إلى بلاد تاوريرت[16]، على بعد مائة وستة وثلاثين كيلومترا إلى الغرب من مدينة وجدة[17].

الأمير يغمراسن يضع أسس السياسة الخارجية للإمارة

أوصى يغمراسن قبل موته سنة 681هـ[18] / 1283م، ابنه وخليفته أبا سعيد عثمان الأول[19]، بمسالمة بني مرين (غربا)، والتوسع على حساب بني حفص (شرقا)"[20]. وهذا ما فعله، بعد خمس سنوات من توليته مقاليد الحكم. إذ جهز سنة 686هـ/ 1286 - 1287م[21] حملة، تلبية لطلب أمير تونس أبي حفص(1284 - 1295م)، الذي استنجد به ضد واليه على بجاية، أبي زكرياء بن السلطان أبي إسحاق الحفصي، الذي أعلن استقلاله عنه. فراح يحاصره بهدف الاستيلاء على ولايته لنفسه، لكنه لم يحقق هدفه.

---

11 - أنظر: Léon l'Africain, Description de l'Afrique, Nouvelle édition, traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris IV, 1956, T.2, P. 323, note 2.

12 - نفسه.

13 - نفسه.

14 - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط. القاهرة 1333هـ/ 1915م، جـ 5، ص 149.

15 -Léon l'Africain, Op. cit., P.323.

16 - ابن خلدون، العبر،7، ص 454؛ عنها (أنظر:Léon l'Africain, description de l'Afrique, T.1, P. 297)

17 - أنظر الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ط.الثانية، بيروت، 1384هـ/ 1965م، جـ 2، ص 132؛ بوزياني الدراجي، تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد 791-633هـ، الجزائر 1981-1980، ص 47.

18 - توفي يوم 29 من ذي القعدة 681هـ/ 28 مارس 1283م، عندما خرج لاستقبال عروس ابنه، ابنة السلطان الحفصي (العبر، 7، ص 189؛ بغية الرواد، 1، ص 207؛ نظم الدر، ص 176.).

19 - ولد أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 639هـ/ 1241م وتمت له البيعة سنة 681هـ/ مارس 1283م (بغية الرواد، 1، 208؛ نظم الدر، ص -176 177).

20 - عن هذه الوصية (أنظر: ابن خلدون، العبر، 7، ص. 190).

21 - عنه أنظر:Julien Ch. A: Histoire de l'Afrique du Nord, 2eme édition, Revue et mise à jour par R. Le Tourneau, Paris, 1952, T.2., P.140.

زحف المرينيين على تلمسان

وبينما كان الأمير الزياني منشغلا بفتوحاته في المناطق الشرقية، أخذ المرينيون يغيرون على أراضيه، منذ سنة 689هـ[22]/1289م، لغرض استنـزاف قبيلته، مستهدفين القضاء على دولته. فقد هاجم أبو يعقوب ابن يوسف المريني تلمسان أربع مرات وحاصرها في المرّة الخامسة حصاراً دام حوالي ثمان سنوات[23]، من شعبان سنة 698هـ/ مايو1299م، إلى ذي القعدة سنة 706هـ/ مايو 1307م[24]. وعندما رأوا شدة مقاومتها، أحاطوها بسياج من الأسوار، وأنشأوا مدينة المنصورة، على بعد ثلاث كيلومترات منها[25]، لاستقطاب كل الأنشطة، خاصة التجارة، التي كانت تمثل عماد الحياة الاقتصادية، في العاصمة الزيانية[26].

وقد أثر ذلك الحصار على النشاط التجاري، لكنه لم ينقطع نهائيا، إذ استمرت سواحل المغرب الأوسط تجذب التجار[27] القطلانيين، خاصة من ميورقة. التي كانت المراكب تغادرها بانتظام سنة 703هـ/ 1304م، إلى الموانئ الشرقية للدولة العبد الوادية، مثل: تنس وشرشال، والجزائر[28]. كما لم ينقطع النشاط التجاري للقشتلانيين، والإيطاليين، والبروفانسيين، واللانجدوكيين في هذه المنطقة[29].

وبعد النزول في الموانئ الغربية، كان التجار الأوروبيون يغامرون بالسفر نحو منطقة العمليات الحربية بتلمسان التي أصبحت مقر سوق سوداء مزدهرة. وكانت المنصورة هي المستفيدة من ذلك[30]. إذ أصبح يعبرها طريق الذهب الإفريقي الكبير، الذي يربط الساحل بالصحراء. وبذلك صارت تقوم مقام تلمسان، في تصنيع المعادن الثمينة، وفي التبادل التجاري؛ يقصدها التجار المسلمون والمسيحيون

---

22 - (بغية الرواد،1، ص. 209 فما بعدها)، ويذهب حاجيات إلى أن هجومات المرينيين بدأت سنة 695هـ/ (1294-1285م)،(المرجع السابق، ص. 15).

23 - أنظر: Marçais (G), Tlemcen, P. 46 sq.

24أنظر: Dhina, Attallah (Dhina), Le royaume Abdelouadide à L'époque d'Abou- Hammou Moussa 1er et d'Abou-Tachéfine 1er, Alger, 1985, P.75.

25 - Marçais (G), op. cit., P. 57

26 - عن حالة تلمسان أثناء الحصار (أنظر: Sid Ahmed Bouali: Les deux grands sièges dde Tlemcen dans l'histoire et la légende E. N.L., Alger, 1984, P. 21 sqq؛ العبر، 7، ص 194 فما بعدها (ط. بيروت)؛ بغية الرواد، 1، ص 209 فما بعدها؛ نظم الدر، ص 178 فما بعدها؛ Bargès (l'Abbej.), Tlemcen, ancienne capitale du Royaume de ce nom, Paris, 1859, P . 193.)

27 - Marçais (G), op. cit., P. 57.

28 - Dufourcq (Charles Emmanuel) : L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècles, Paris, 1966, P.389.

29 - Dufourcq, L'Espagne catalane, P.369.

30 - Ibid, P.471.

واليهود من مختلف البلدان[31]، وكذلك السفراء المبعوثون إلى السلطان المريني[32]. لكنها مع ذلك لم تعمر طويلا، بعد انتهاء الحصار، لأن بني عبد الواد، بعد استعادة ملكهم، أخذوا في تحطيمها شيئا فشيئا، وانتهوا من ذلك قبل منتصف القرن التاسع الهجري[33] (الخامس عشر الميلادي). وأثناء الحصار أوقف الأمير عثمان بن يغمراسن الدعوة للحفصيين[34].

الزيانيون يسترجعون تلمسان ويصالحون بني مرين

ولما توفي أبو سعيد فاتح ذي القعدة سنة 703هـ [35]/ 5 جوان 1304م خلفه ابنه أبو زيان (703 - 707هـ/ 1304 - 1308م). وفي عهده قتل أبو يعقوب يوسف المريني على يد أحد عبيده[36]، مما تسبب في انتشار الفوضى في صفوف جنده، وشجع الزيانيين الذين كانوا على وشك الاستسلام، على الخروج إليهم، فهزموهم وخلصوا أنفسهم سنة 707 هـ/1307 - 1308م.

ثم عقد أبو زيان صلحا مع أبي ثابت المريني خليفة أبي يعقوب. وبدأ يسترجع بعض المناطق الشرقية، التي استولى عليها بنو مرين أثناء الحصار. وعادت إلى تلمسان أهميتها السياسية، والاقتصادية، بالمغرب. وأصبح سلاطينها أكثر استقلالا عن ذي قبل، عندما كانوا يعترفون، إلى حد ما، بالسيادة الحفصية[37].

ولما توفي أبو زيان يوم الأحد 21 شوال سنة 707هـ[38]/ 15 أفريل 1308م، خلفه أخوه أبو حمو موسى الأول، فاستهل حكمه بعقد صلح مع أبي ثابت[39] هو الآخر، ليضمن استقرار حدوده الغربية. واهتم بالنواحي الشرقية. فاستطاع أن يوسع حدود إمارته إلى ما كانت عليه أيام أبيه[40]. واهتم بشؤون الدولة في الداخل، فزاد في تنظيمها، حتى اعتبره ابن خلدون ((أول ملوك زناتة))[41].

31 - Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord, T.2.,P.157; Dhina: Le Royaume Abdelouadide, P. 129; Dufourcq; Ibid.

32 - Marçais (G): Tlemcen, P. 574sq.

33 - Bargès: Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom, P.194

34 - العبر، 7، ص 207، ط. بيروت.

35 - نفسه؛ حاجيات، المرجع السابق، ص 15.

36 - في يوم الأربعاء 7 ذي القعدة، دخل عبد على أبي يعقوب يوسف فقتله بخنجر (العبر، 7، ص 199؛ بغية الرواد، 1، ص 24؛ نظم الدر، ص 182 فما بعدها؛Marçais (G): Tlemcen, P. 58)

37 - أنظر:Dufourcq; l'Espagne catalane, P. 470.

38 - بغية الرواد، 1، ص 212؛ حاجيات، المرجع السابق، ص 16.

39 - العبر، 7، ص 204، ط. بيروت.

40 - بغية الرواد، 1، ص 203؛ حاجيات، المرجع السابق، ص 17-16.

41 - العبر، 7، ص 204، ط. بيروت، وعن أعمال أبي حمو وشخصيته (أنظر: Marçais (G): Tlemcen,(les villes d'art célèbres),P.79.

وبعد مقتله راح ابنه وخليفته أبو تاشفين الأول يعقد صلحا مع أبي سعيد المريني[42] (710-731هـ/ 1310-1331م). وتفرغ للناحية الشرقية، مثل أسلافه، وقام بعدة محاولات للاستيلاء على بجاية[43]، انتهت بلقاء جيوشه، التي أتى بها لتدعيم بني سليم[44]، بجيوش أبي يحي الحفصي[45]، فهزمه، ووصلت جيوش بني عبد الواد إلى تونس، فدخلتها وسلمتها إلى حليفيهم، عمران، وحمزة بن عمر السليمي، ثم عادت إلى تلمسان[46].

أمام ضغط أبي تاشفين المتزايد على الحفصيين، لجأ أميرهم، أبو يحي، إلى الاستنجاد بالسلطان أبي سعيد المريني فحاول أن يصلح بين الطرفين، لكن الأمير الزياني رفض وساطته.

أبو الحسن المريني يحتل تلمسان

بعدما تولّى الأمير أبو الحسن المريني السلطة، إثر وفاة أبيه أبي سعيد، واصل سعيه لدى أبي تاشفين ليوقف غاراته على الحفصيين، ولما رأى عدم جدوى تدخله، قرر الزحف على تلمسان، فحاصرها سنة 735هـ/1335م، واستولى على المناطق الواقعة شمالها[47]، بتنسيق ولاشك مع الحفصيين. وهو ما يفسر هجوم هؤلاء في نفس الوقت على جيش بني عبد الواد، قرب بجاية. وربّما يكون أبو الحسن قد فعل ذلك ليقطع الاتّصال بين تلمسان والبحر الذّي قد تأتيها عن طريقه إمدادات من بني الأحمر، ملوك غرناطة، حلفاء بني زيان ضدّ المرينيين أو لمنع تموينها عن طريق الجمهوريات الإيطالية التي كانت لها معها علاقات تجارية[48]. وصمد أبو تاشفين وأبناؤه في الدفاع عن عاصمتهم، حتى قتلوا[49]. وسقطت تلمسان بين

---

42 - العبر، 7، ص 225، عنه أنظر: Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord,P. p. 177-178.

43 - Lespes (René) : Oran, ville et port avant l'occupation française,Revue Africaine 1934, P.281

44 - ثار بنو سليم ضد أبي يحي الحفصي، وبايعوا منافسه الأمير ابن أبي عمران، وطلبوا المساعدة العسكرية من أبي تاشفين الزياني،)أنظر: حاجيات (عبد الحميد)، أبو حمو موسى الزياني، ص18).

45 - هو أبو يحي زكرياء بن يحي (-895 899هـ/ 1494-1490م) عنه)أنظر: Idris (H.R): E.I., T.III, Article Abou-Yahia Zakariya, Nelle éd. P.71.) (

46 - حول الصراع بين أبي تاشفين وأبي يحي،)انظر: ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر، 7، ص 221 فما بعدها؛ ابن خلدون (يحي)، بغية الرواد، 1، 218 فما بعدها؛ التنسي، نظم الدر، ص 197 فما بعدها(.

47 - يرى باسي ((Basset R. أن أبا الحسن فعل ذلك ليقطع الاتصال بين تلمسان وبين البحر، الذي قد تأتيها عن طريقه، إمدادات من بني الأحمر، ملوك غرناطة، حلفاء بني عبد الواد ضد المرينيين، أو تموينها عن طريق الجمهوريات الإيطالية، التي كانت لها معها علاقات تجارية Nedrouma et les Trarah, Paris 1901, P.12.)).

48 - Basset (R.): Nedrouma et les Trarah, Paris 1901, P.12.

49 - Bargès فقد انتهى بقتل أبي تاشفين وأبنائه، الفرع الأول لبني عبد الواد وينتقل الحكم لفرع بني زيان(,Tlemcen (ancienne capitale de ce nom, p. 194

أيدي أبي الحسن يوم 27 رمضان 737 هـ[50]/ 29 أبريل 1337م، فولى عليها ابنه أبا عنان. وواصل سيره شرقا إلى تونس، فاستولى عليها. وبقى بالمغرب الأدنى، إلى أن ألحقت به القبائل العربية هزيمة بالقيروان سنة 749هـ/ 1348م[51]. وبذلك وضع حدا للسيطرة التي حققها على بلاد المغرب، بفضل حسن استغلاله للظروف الناجمة عن العلاقات السياسية المتدهورة بين الحفصيين وبين بني عبد الواد.
وبلغت ابنه بعدذلك مباشرة، أي نفس السنة، إشاعات مفادها أن أباه هلك بالطاعون، فأسرع بالعودة إلى فاس، خوفا من أن يغتصب منه أقاربه العرش[52].

بنو عبد الواد (الزيانيون) يستعيدون تلمسان

وكان أبو سعيد و أخوه أبو ثابت، ابنا عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن، يعملان في جيش أبي الحسن، وبعد هزيمة القيروان، وما نجم عنها من انشغال المرينيين بمشاكلهم الداخلية، اغتنما الفرصة وانسحبا مع حوالي خمسمائة فارس من مغراوة وبني توجين[53]. فسارا إلى تلمسان، واسترجعاها في 22 جمادى الآخرة من نفس السنة / 18 سبتمبر 1348م[54]. وتولى الأول السلطة، وقاد الثاني الجيوش. وبدأ يسترد من المرينيين أراضي الإمارة[55]. فاسترجع وهران، وندرومة، وتدلس. وقد حاول الناصر بن أبي الحسن المريني أن يتصدى له في إفريقية، فساعده أبو عنان الذي استولى على الحكم بفاس، فهزم الأمير الزياني الناصر في وادي ورك، ببلاد العطاف[56] في شلف؛ وواصل توسعاته شرقا .
وأعاد الناصر الكرة مع أبيه الذي قدم من بجاية إلى مدينة الجزائر، عن طريق البحر. واعترضه القائد الزياني أبو ثابت، بمكان يسمى تبعزيزن في 10 شعبان من عام 751هـ/1349م. فقتل الناصر وذهب والده إلى المغرب عن طريق الصحراء[57]، في

50 - عن هذا الموضوع أنظر: العبر،7، ص 277 فما بعدها؛ بغية الرواد، 1، ص 219؛ نظم الدر، ص 200؛ Bargès, op. cit., PP. 193 194.

51 - عن هذا الموضوع أنظر: Julian (Ch.), histoire de l'Afrique du Nord,T.2, P.14

52 - دعا ابن أخي أبي عنان لنفسه بالإمارة في فاس، فتغلب عليه أبو عنان وانتصب على العرش (حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ص 24).

53 - وبايعهما قومهما ظاهر تونس، آخر ربيع الأول سنة 749هـ/ 1348م (بغية الرواد، 1، ص 237 و240).

54 - نفسه.

55 - ابن خلدون، العبر، 7، ص. 248- 249 (ط. بيروت)، وحسب Bergès فإن عثمان أبا سعيد- أعلن نفسه حاكما على تلمسان خلال سنة 752هـ/ 1351م؛ (Tlemcen, ancienne capitale de ce nom, P. 195).

56 - يحي بن خلدون، بغية الرواد، جـ. 1، ص. 243-242؛ غير أن عبد الرحمن بن خلدون لا يذكر مشاركة الناصر بن أبي الحسن المريني، في هذه المعركة. بل ذكر أن الذي تصدى لأبي ثابت هو ونزمار وجموع العرب بإيعاز من أبي الحسن (العبر، 7، ص. 248).

57 - التنسي، المصدر السابق، ص 213.

محاولة فاشلة، لجمع الأنصار، ولاسترداد عرشه من ابنه أبي عنان[58] (1348 - 1358م). لكنه مات دون أن يحقق هدفه[59].

المرينيون يزحفون على تلمسان من جديد

ولم يطمئن أبو عنان لانتصارات بني عبد الواد، فانتهز فرصة استغاثة مغراوة ضدهم[60]، وزحف عليهم، في آخر شهر ربيع الثاني 753هـ/1352م، فقتل سلطانهم، وشرد أخاه أبا ثابت، إلى بجاية، حيث قبض عليه الحفصيون، وقتله أميرهم أبو يحي[61].

وولى أبو عنان ابنه محمد على تلمسان، التي بقيت تابعة لفاس إلى أن قدم أبو حمو موسى الثاني من تونس[62] فاقتحمها وطرده منها في ربيع الأول سنة 760هـ/ 1360م. ثم شرع في استرداد أراضي إمارته، فوجه المريني حملة ضدّه سنة 760هـ/ 1360م. فاستولت جيوشه على عاصمته[63]. لكنهم سرعان ما غادروها إلى بلادهم، بسبب مشاكلهم الداخلية، وإزعاج قبائل المعقل[64] حلفاء الأمير الزياني، لجيشهم[65].

وعاد أبو حمو إلى تلمسان. ثم راح يسترجع المناطق المحيطة بها، خاصة الشرقية منها. وزحف أمير فاس، أبو سالم[66] في جويلية 1359 - 19 سبتمبر1361م 761هـ) على تلمسان، فدخلها في 6 شعبان 761هـ[67]/ 1361م، بعد انسحاب أميرها الذي خالفه إلى أجر سيف[68]. حيث ساعدته رغبة على تخريب عدة مدن مرينية بالحدود

---

58 - حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ص 213.

59 - عن هذا الموضوع أنظر: Julien (Ch. A) :Histoire de l'Afrique du Nord, P.181.

60 - وقد يكون قام بهجومه هذا ضد بني عبد الواد لكي يقطع الطريق على أبيه (حاجيات، المرجع السابق، ص 31-30.).

61 - بغية الرواد، 1، ص. 245 فما بعدها؛ العبر، 7، ص 252؛ نظم الدر، ص 214؛ Bergès, Tlemcen, p.195.

62 - ولد أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن سنة 703هـ/ 1304م، بغرناطة في الأندلس، وعاد مع أبيه إلى تلمسان بعد سنة، فنشأ بها، وفي سنة 737هـ/ 1337م، انتقل مع عائلته إلى فاس بأمر أبي الحسن المريني الذي ضم تلمسان آنذاك. وعندما استرجعها أبو سعيد عاد إليها أبو حمو، واستقر مع أبيه بندرومة، ولما قتل أبو عنان الأمير الزياني، أبا سعيد، غادرها أبو حمو إلى تونس، وفي سنة 758هـ/ 1357م توجه إلى الجنوب، فاشترك مع الدواودة في صد المرينيين هناك، ولما وصل إلى الحضنة التقى ببني عامر الذين طردوا من مواطنهم في المغرب الأوسط، فتحالف شيخهم سفير معه وواصل طريقه غربا إلى تلمسان (أنظر التفاصيل عند حاجيات، المرجع السابق، ص. 69 فما بعدها).

63 - Abdallah Laraoui, op. cit., P.215.

64 - نسبة إلى معقل بن الحارث، بطن من مدحج، من القحطانية، كانت مواطنهم في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بالمغرب الأقصى، وكانوا مجاورين لبني عامر من زغبة في مواطنهم، ما بين قبلة تلمسان والمحيط الأطلسي (معجم قبائل العرب، 3، ص 1123).

65 - حاجيات، المرجع السابق، ص 94.

66 - عنه أنظر: Julien (Ch. A) :op. cit. P.184.

67 - حاجيات، التاريخ السياسي لدولة بني زيان، الجزائر في التاريخ، جـ 3، ص 404.

68 - هي قرية عامرة على نهر ملوية وكانت توجد في الطريق بين وجدة ومليلة (المغرب، ص 88).

الغربية لبلاده[69]. فاضطر أبو سالم أن يعود بسرعة إلى فاس، خوفا من أن يزحف بنو زيان عليها[70]. وعاد أبو حمو بدوره إلى عاصمته وواصل توسعه شمالا وشرقا فضم وهران، والمدية، وملیانة ومتيجة والجزائر[71].

وفي تلك الأثناء جمع أبو زيان بن أبي سعيد الثاني، بعض القبائل، وحاول استعادة عرش أبيه من أبي حمو، ولما فشل تدخل أبو سالم المريني إلى جانب قبائل بني سويد، وبني عامر، والمعقل، لمساعدته، لكن أبا حمو استمال بني عامر فتخلوا عن خصمه، وفشلت بذلك محاولته[72].

بعدئذ تعددت حملات أبي حمو على بجاية، فأقلقت السلطان الحفصي، الذي استعان عليه بابن عمه، ومنافسه، على العرش، أبي زيان. فحاصره الاثنان، لكنه استطاع أن يقضي، بعد معارك عديدة، على أبي زيان[73].

ونزولا عند رغبة بني سويد[74]، زحف السلطان عبد العزيز المريني على تلمسان، فاستولى عليها في محرم سنة 772هـ/ أوت 1370م[75]. وبعد وفاته سنة 774هـ[76]/ 1372م، عاد إليها صاحبها، واسترجع مرة أخرى المناطق الشرقية. كما ساعد عامل سجلماسة ومراكش، عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، في ثورته ضد ابن عمه أبي العباس. مما جعل هذا الأخير يغزو تلمسان. لكنه غادرها بعد أيام سنة 786هـ[77]/ 1375م.

بعد ذلك دخل أبو حمو في صراع مع ابنه أبي تاشفين، الذي كان يخشى منافسة إخوته، المنتصر وأبي زيان وعمير، على العرش، بعد وفاة أبيه، الذي كان يعطف عليهم مما أدى إلى وقوع حرب بينهما. انتهت بقتل الأب، في غرة ذي الحجة سنة 791هـ/ 21 نوفمبر 1389م[78].

---

69 - مثل وطاط وبلاد ملوية، (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص159)؛ ولكن زغبة ثارت ضده سنة 768 هـ/1367م، فقتل أبو حمو كثيرا من رجالها بمساعدة رياح(المرجع السابق، ص 160).

70 - العبر، 7، ص 260 فما بعدها.

71 - حاجيات، المرجع السابق، ص 405-404.

72 - العبر، 7، ص 262 فما بعدها.

73 - العبر، جـ7، ص 268-267؛ المرجع السابق، ص 117 فما بعدها.

74 - بدافع الغيرة من قبيلة بني عامر، التي حظيت بمكانة مرموقة لدى أبي حمو، بسبب الدور الكبير الذي لعبته في مؤازرته، طلبت قبيلة سويد من السلطان عبد العزيز المريني أن يزحف على تلمسان (مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، المرجع السابق، ص 156 فما بعدها).

75 - Laroui (Abdallah)m op. cit., P. 215.

76 - توفي عبد العزيز المريني بتلمسان، بعدما أصابه مرض خطير في 22 ربيع الثاني سنة 774هـ/ 1372م (العبر، 7، ص 698).

77 - العبر، جـ 7، ص -296 298 (ط. دوسلان).

78 - نفسه، ص 353؛ نظم الدر، ص 253.

المرينيون يؤججون الفتن في البيت الزياني

وبتولي أبي تاشفين زمام الأمور، دخلت الدولة الزيانية مرحلة جديدة من تاريخها، تتمثل في التدخلات الخارجية في شؤونها الداخلية، إذ أن استنجاده بالمرينيين في حربه ضد أبيه، شجعهم على مواصلة هذه السياسة التي تجنبهم كثرة التكاليف، وتمكنهم من التحكم في مصير هذه الدولة[79]، خاصة وأن الضعف بدأ يسري في جسم دولتهم، من جراء التنافس على الحكم آنذاك. فأخذوا يعملون على إثارة الفتن بين أفراد الأسرة الحاكمة[80]، إذ لما قامت فتنة بين أبي تاشفين وأخيه أبي زيان، وهزم الأول الثاني، استنجد بهم. فجهزوا له حملة، كلفوه بقيادتها. وعندما وصلت إلى تازا[81]، توفي أبو تاشفين في 17 ربيع الثاني 795هـ[82]/ فيفري1393م، فأوقفوا حليفهم الجديد، وأودعوه السجن، وهب يوسف بن أبي حمو موسى الثاني[83]، الذي كان واليا على الجزائر، للدّخول إلى تلمسان، وقتل أبا ثابت بن أبي تاشفين، وكان تولى الأمر حوالي أربعين يوما[84]. ثم استولى على الحكم. فهاجمه أبو فارس[85] بن السلطان أبي العباس المريني[86]. فلجأ إلى حصن تاجحمومت[87]. واستولى القائد المريني على تلمسان، ثم راح يخضع المناطق الشرقية. لكنه عاد إلى فاس، بعد موت أبيه. وتولى أمر قومه. ثم أطلق سراح أبي زيان، وبعثه على رأس جيش، ليستولي على تلمسان، ويتولاها للمرينيين. ونجح أبو زيان في مهمته، فبويع بالإمارة، غرة ربيع الثاني سنة 796هـ/ 3 فيفري 1394م[88]. ولما حاول أن يستقل عن حلفائه المرينيين ساعدوا ضده، أخاه، أبا محمد عبد الله بن أبي حمو

79Laroui (Abdallah)m op. cit., P. 215. ، ويذكر الحسن الوزان (Léon Africain) أن ملوك فاس غزوا تلمسان عشر مرات (Description de l'Afrique, T.2, p.323).

80 - عن سياسة المرينيين إزاء بني عبد الواد أنظر: Laroui (Abdallah): op. cit., P. 215.

81 - مدينة تقع شرق المغرب الأقصى على بعد حوالي 100كم شرق وشمال شرق مدينة فاس بممر تازا، بين المغربين الأوسط والأقصى على الطريق الطبيعي الكبير الرابط بين الشرق والغرب (أنظر: Marçais (G): E.I.,Art. Taza, T.4, pp. 745-746).

82 - نظم الدر، ص 279، الجيلالي عبد الرحمن، المرجع السابق، جـ 2، ص 181، أو هو توفي في رمضان من نفس السنة (حاجيات، استمرار النفوذ المريني، الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، الجزائر، 1984، جـ3، ص 426).

83 - ويكنى الحجاج (أنظر الدر، ص 213)، أو يوسف بن الزابية (الجزائر في التاريخ، جـ3، ص 426).

84 - نظم الدر، ص 282؛ الجزائر في التاريخ، جـ3، 426.

85 - هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس المريني (حاجيات، استمرار النفوذ المريني، الجزائر في التاريخ، جـ3، ص 426) أو هو أبو فارس أحمد بن أبي العباس " (الجيلالي عبد الرحمن، المرجع السابق، جـ2، ص 112) تولى أمر المرينيين من 796هـ/ 1393م، إلى 799هـ/ 1396م، (نفس المرجع).

86 - هو أبو العباس أحمد المستنصر بن ابراهيم تولى الإمارة في فاس مرتين الأولى سنة 776هـ/ 1374م وتنحى في نفس السنة، والثانية سنة 789هـ/ 1387م إلى 796هـ/ 1393م (نفس المرجع).

87 - نظم الدر، ص -283 284، أو تاحجمومت، (حاجيات، المرجع السابق، جـ3، ص 426) ولم أعثر على تعريفه.

88 - نظم الدر، ص288.

الثاني. فتولى الأمر سنة 801هـ/1398م، ثم خلعوه سنة 804هـ/ 1401م، ونصبوا مكانه أخاه الآخر، أبا عبد الله، المعروف بابن خولة. ولما توفي هذا الأخير، خلفه ابنه عبد الرحمن في ذي القعدة سنة 813هـ/ مارس 1411م[89]، ثم تولى الأمر عمه السعيد بن أبي حمو، آخر محرم سنة 814هـ/ 1412م[90]. وأعان المرينيون عليه أخاه أبا مالك عبد الواحد[91]، فلما حقق هذا الأخير هدفه، حاول أن يتخلص منهم، لما لمسه من ضعف فيهم[92]. فتدخل في شؤونهم حتى أنه ((ملّك بفاس السلطان محمد بن أبي طريق بن أبي عنان المريني))[93].

إمارة بني عبد الواد بين تدخلات المرينيين والحفصيين

غير أن أبا مالك تعرض لضغط الحفصيين، من الجهة الشرقية، بعدما حاول استرجاع المناطق التي كانت تحت نفوذهم. فزحف أميرهم أبو فارس على تلمسان[94]، ودخلها في 13 جمادى الثانية سنة 827هـ/ 13 ماي 1424م. وغادرها أميرها إلى فاس. فولى عليها السلطان الحفصي محمد بن الحمراء بن أبي تاشفين الثاني، يوم الأحد 16 جمادى الثانية[95]. وفي رجب سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة (831هـ/1421م)، عاد أبو مالك عبد الواحد إلى تلمسان، ودخلها بمساعدة السلطان الحفصي الجديد، عثمان بن أبي فارس[96].

ومنذ ذلك الحين واصل الحفصيون بتونس، مثل المرينيين بفاس تدخلاتهم، في الشؤون الداخلية لإمارة بني عبد الواد، فعزلوا من شاؤوا، وولوا من شاؤوا، ومتى شاؤوا، وتوالت الاضطرابات بسبب التنافس على السلطة بين أفراد البيت الزياني، الذين كانوا يستنجدون بالحفصيين تارة، وبالمرينيين تارة أخرى. وتألبت ضدهم القبائل، واستقلت عنهم مناطق عديدة[97]. فزاد بذلك ضعفهم ولم

89لم يبق على العرش سوى شهرين، ثم اغتصبه منه عمه، بعدما فرّ من السجن بفاس، (الجزائر في التاريخ، جـ. 3، ص 427).

90 - لم يستطع البقاء في الحكم لسوء سياسته، خاصة من الناحية المالية (نفس المرجع).

91 - نظم الدر، ص 318؛ الجزائر في التاريخ، جـ3، ص 427.

92 - Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siècle, d'après Berque (J) un manuscrit jurisprudentiel, Annales, E.S.C Septembre Octobre 1970,P. 329

93 - نظم الدر، ص -342 325.

94 - Léon l'Africain: op. cit., T.2, P. 324.

95 - نظم الدر، ص 325-324.

96Léon l'Africain: op. cit., T.2, P. 324.

97 - مثل تنس والجزائر وتدلس، (حاجيات، الجزائر في التاريخ، جـ. 3، ص. 455.).

يستطيعوا مقاومة الإسبان عند نزولهم بوهران سنة 914هـ/ ماي 1509م[98].
وهكذا، بعدما استقّرت قبيلة بني عبد الواد في مدينة تلمسان، وأسّست بها إمارة دامت حوالي ثلاث قرون. وحاول يغمراسن انتهاج سياسة مسالمة مع المرينيين بعد فشله في حربهم عدّة مرّات. وأوصى ابنه أبا سعيد عثمان بالسّير على نهجه. لكن المرينيين كانوا يشنّون هجمات متكرّرة في مرحلة قوّة الدّولة العبد الوادية. وحاصروا العاصمة تلمسان واحتلّوها أكثر من مرّة.
وأمام إصرار الزيانيّين على صدّهم، تحيّنوا فرصة تنافس أفراد الأسرة على الحكم، وبداية ضعف الدّولة، وغيّروا سياستهم، واختاروا تلك التي تجنّبهم كثرة التّكاليف، وتمكّنهم من التّحكم في مصير الإمارة، فأجّجوا الفتن التي زادت الأوضاع سوءا ممّا سمح لهم بتولية من شاؤوا وعزل من شاؤوا. حتى اعترى الضّعف كلّ دواليب الدّولة فلم يستطع رجالها الصّمود أمام هجمات الإسبان، ثمّ الأتراك وانهارت الإمارة.

المراجع

1 – بوزياني الدراجي (1981). تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد 791–633هـ، جامعة الجزائر2، قسم التاريخ.
2 – التنسي، محمد بن عبد الله (1985م). نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان، الباب السابع، تحقيق محمود بوعياد، طبعة الجزائر.
3 – الجيلالي، عبد الرحمن(1965م). تاريخ الجزائر العام، ط.الثانية، بيروت.
4 – حاجيات، عبد الحميد (1974). أبو حمو موسى الزياني÷ :حياته وآثاره. الطبعة الأولى، الجزائر.
5 – حاجيات، عبد الحميد (1982). أبو حمو موسى الزياني÷ :حياته وآثاره. الطبعة الثانية، الجزائر.
6 – حاجيات، عبد الحميد (1984). استمرار النفوذ المريني: الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني. الجزائر.
7 – ابن خلدون، عبد الرّحمن(1956). العبر. مج7، ط. بيروت.
8 – حاجيات، عبد الحميد (1980م). تحقيق حول مؤلف ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. الجزء1، الجزائر.

98 - لقد هاجم البرتغاليون مينائي المرسى الكبير ووهران سنة 906هـ/ 1501م، لكنهم فشلوا في الاستيلاء عليهما، وهاجم الأسبان المرسى الكبير وتغلبوا على أهله في 11 سبتمبر 1505م/ 910هـ؛ Bergès: Tlemcen, p. 303; Pélissier: Mémoire Historique et géographique, PP. 10-11; حاجيات، خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ، جـ 3، ص 456 أو 13 سبتمبر 1505م (Lespes, Oran, p. 295). ونزل الاسبان بوهران يوم 19 ماي 1509م؛ (نفسه).

9 – عنان، محمد عبد الله (1964م). عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. القاهرة.
10 – القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(1915م). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. القاهرة.
11 – مصطفى أبو ضيف أحمد عمر(1982). القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين. الجزائر.
12 - Bargès, l'Abbej (1859). Tlemcen, ancienne capitale du Royaume de ce nom, Paris.
13 - Basset R. (1901). Nedrouma et les Trarah, Paris.
14 - Berque J. (1970). Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siècle, un manuscrit jurisprudentiel, Annales, E.S.C.
15 - Dhina, Attallah(1985). Le royaume Abdelouadide à L'époque d'Abou- Hammou Moussa 1er et d'Abou-Tachéfine 1er, Alger.
16 - Dufourcq ,Charles Emmanuel (1966). L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècles, Paris.
17 - Fey, Henri Léon(1958). Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination espagnole, Oran.
18 - Funch, Brentans C .(1966). article Meknès, In Encyclopédie de l'Islam, t. III.
19. Idris, H.R. (1966). Article Abou-Yahia Zakariya, In Encyclopédie de l'Islam, éd. Nelle, t. III.
20 - Julien, Ch. A. (1952). Histoire de l'Afrique du Nord, 2ème éd., Paris.
21 - Laraoui, Abdallah (1970). Histoire du Maghreb, Paris.
22 - Léon l'Africain(1956). Description de l'Afrique, Nouvelle édition, traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris IV.
23 - Lespes, René (1934). Oran, ville et port avant l'occupation française. Revue Africaine.
24 - 13-Marçais, G. (1950). Tlemcen : Les villes d'art célèbres. Paris.
25 - 14- Marçais, G. (1950). Article Oujda, In Encyclopédie de l'Islam, t. III.
26 -15- Marçais, G. (1950). Art. Taza, In Encyclopédie de l'Islam, t.4.
27 - Sid Ahmed, Bouali (1984). Les deux grands sièges de Tlemcen dans l'histoire et la légende. E.N.L, Alger.